العنوان:	الإبداع و علم النفس
المصدر:	الآداب الأجنبية
الناشر:	اتحاد الكتاب العرب
المؤلف الرئيسي:	سيمونوف، ب. ف.
مؤلفين آخرين:	حلاق، يوسف(مترجم)
المجلد/العدد:	س 10, ع 35,36
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1983
الصفحات:	7 - 43
رقم MD:	225157
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	النشاط الإبداعي، الإبداع الأدبي، النقد الأدبي، التحليل النفسي، الانفعالات، السلوك
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/225157

© 2026 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

سيمونوف، ب. ف.، و حلاق، يوسف. (1983). الإبداع و علم النفس.الآداب الأجنبية، س 10, ع 35,36، 7 - 43. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/225157

إسلوب MLA

سيمونوف، ب. ف.، و يوسف حلاق. "الإبداع و علم النفس."الآداب الأجنبيةس 10, ع 35,36 (1983): 7 - 43. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/225157

© 2026 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

الإبداع وعلم النفس

ب. ف. سيمونوف

ترجمة : يوسف حلاق

عن الروسية

الباحث الذي يحاول العمل في منطقة « تقاطع العلوم » مهدد دائماً بخطر الهواية السطحية عند خروجه عن حدود اختصاصه الى إختصاص آخر . وإني لأدرك تماماً هذا الخطر ، لكوني أعمل في مجال من مجالات المعرفة تعرضّ منذ بضع سنوات إلى « تدخّل » نشط من قبل السيبرنيتيكا انتهى إلى خيبة أمل كبيرة من الناحية المنهجية . إن ماقلته لا يتعلق من قريب أو بعيد باستخدام الآلات الحاسبة في تقويم المعطيات التجريبية المتعلقة بعلم النفس الفيزيولوجي وفيزيولوجيا الجهاز العصبي :

* فصل من كتاب « الأدب والعلوم الانسانية » موسكو ١٩٨١ .

فبدون استخدام هذه الآلات سيتعذرّ علينا القيام بأعمال كثيرة في مجال دراسة النشاط العصبي العالي عند الإنسان والحيوان . إن ما نقصده شيء آخر .

في ماضٍ ليس بالبعيد (لازلنا جميعاً نذكره جيداً) تقدم علماء السيبر نيتيكا بمجموعة نماذج لنشاط الدماغ . كان بعض هذه النماذج باهراً بالفعل يدهش بجمال ومنطقية تصاميمه التي كان ممكنا ، على مايبدو ، ابتكار مجموعة كاملة من الأجهزة التقنية الجديدة مبدئيا على أساسها . إلا أن هذه النماذج الجميلة كانت تشكو في واقع الأمر من نقص واحد فقط هو أنها لم تكن توفّر الثقة في أن الدماغ الحي سيعمل وفق هذه التصاميم المقترحة فالسيبرنيتكيا التي أغنت رصيد علماء فيزيولوجيا الجهاز العصبي بطرائق التحليل الرياضي للمعطيات التجريبية بدت عقيمة على نحو مدهش من الناحية الفكرية . فاعظم الانجازات في دراسة نشاط الدماغ ، سواء فيزيولوجيا الخلايا العصبية أو اكتشاف وظائف التكوين الشبكي ومراكز الرضى أو تخصص عمل نصفي كرة المخ الأيسر والأيمن في دماغ الانسان الخ . . هذه الاكتشافات المبدئية التي أغنت علم النفس الفيزيولوجي المعاصر إغناءً جوهرياً بالغاً ، أعود فأكرر أنها تمت دون أي تأثير من قبل النماذج السيبرنيتيكية .

وإني لعلى قناعة عميقة بأن الشرط الأول لنجاح التفاعل بين العلوم هو الاحترام المتبادل لتاريخ « مجال التقاطع » في المعرفة وانجازاته احتراما تنتفي معه الهواية السطحية التي كثيراً ماتميز غير الاخصائي . ان التفاعل يعني أول مايعني مشاركة « الجار جاره » فيما يملك وفيما يراه هاماً لحل المسائل الخاصة بالعلم الذي يعمل فيه هو .

ومما يزيد من تعقيد مسألة التفاعل بوصفه اطلاعاً متبادلاً مفيداً ، في

حالتي أنا ، أمر أشار إليه منذ قرن تقريباً « أبو الفيزيولوجيا » الروسية » ورائد علم النفس المـادي في آن ايفـان ميخـائيلوفتش سيتشينـوف إذ قال : « . . حاول أن تتحدث في موضوع ما إلى علماء نفس ينتمون الى مدارس مختلفة تر أن لكـل مدرسـة رأياً مغايراً للأخرى ؛ وبالمقابل تحدّث على سبيل المقارنة ، في السـوت أواللون أو الكهـربـاء مثـلاً مع أي فيزيائي ومن أي بلد كان تر أن اجوبتهم كلهم واحدة في جوهرها[1] »

وبـما أن ملاحظـة إ . م . سيتشينـوف لازالت تحتفظ بصحتها الى حد كبير حتى يومنا هذا ، فليس في نيتي أن الفت اهتمام زملائي علماء الأدب الى مسـائـل علم النفس عامـة ، بل الى بعض المسـائـل المتصلة بالميـدان الذي أعمـل فيـه مبـاشرة والى بعض الطروحات التي آخذ بها . أما النتائج التي قد تترتب على هذه الـوقـائـع والطـروحـات بالنسبة الى المسائل الراهنة في علم الأدب فأمر اتركه للقارىء .

انفعالية الفن وسيكوفيزيولوجيا الانفعالات

يقول ل . ن . تولستوي في ردّه على السؤال « ما هو الفن ؟ » مايلي :

« ان تستعيـد شعـوراً عانيته مرةً فتنقله الى الآخرين بوساطة الحركات والخطوط والألوان والأصوات والصور المعبرّ عنها بالكلمات بحيث يشعر هؤلاء شعورك نفسه . ذلكم هو قوام النشاط الفني . فالفن نشاط انساني يقوم على أن ينقـل أحـدهم الى الآخـرين عن وعي وبـإشارات خارجية معروفة مشاعر أحسّهـا فينفعـل الاخـرون بها ويعانونها[2] » . هذا التعريف الكلاسيكي للفن

١ - سيتشينوف إ . م : مؤلفات مختارة ، موسكو ١٩٥٢ ، ج١ ص ١٣٠

٢ - تولستوي ل . ن : المؤلفات الكاملة في ٩٠ جزءاً، موسكو ١٩٢٨ - ١٩٥٥ ، ج٣٠ ص ٦٥

بحاجة الى تدقيق جوهري ، إذ ماهي المشاعر المقصودة هنا ؟ من الواضح تماما أن « التجاوب الانفعالي » من قبل القارىء ليس غاية بذاته وإلا كان رسم مشاهد الرعب على الطريقة الطبيعية ذروة المهارة الأدبية . وقد تناول ل . س . فيفوتسكي بالنقد والتحليل هذا التعريف للفن وبينَ بالتفصيل الفرق المبدئي بين الانفعالات التي تثيرها الأعمال الأدبية وتلك التي يشعر بها القارىء في حياته اليومية[٣] .

بإمكان الواحد منا بطبيعة الحال أن يسترسل قدر ما يشاء في الكلام على انفعالات « ذكية » « وغير ذكية » على انفعالات بيولوجية « دنيا » وانفعالات جمالية « عليا » لكنه من المفيد ، كما نرى ، العودة في خضمّ هذه المناقشات الى تبينّ طبيعة الانفعال والعوامل والقوانين التي تؤدي الى نشوء هذه الحالة الخاصة في دماغ الانسان التي نطلق عليها اسم انفعال ، شعور ، معاناة ، مزاج ، هيجان . التعريف المألوف للانفعال في كتب علم النفس هوالتالي : « الانفعال هو معاناة الانسان لموقفه من العالم المحيط به ومن ذاته » . هذا التعريف صحيح في خطوطه العامة يطرح أمامنا على الفور مسألة سببية هذا الموقف . لماذا يتجلى هذا الموقف في بعض الأحوال بمثل هذا الوضوح والسطوع بينما يكون ضعيفا في حالات أخرى ؟ لماذا تكون هذه العلاقة على نحو في حالات معينة وعلى نحو آخر مناقض تماماً في حالات أخرى ؟ .

في عام ١٩٦٤ توصلت بالاستناد الى نتائج أبحاثي الخاصة ، والى تحليل معطيات أدبية عديدة ، الى أن الانفعال هو انعكاس حاجة ملحة (نوعيتها وحجمها) وتقويم المخ لاحتمال (لامكانية) اشباع هذه الحاجة

٣ - فيفوتسكي ل . س : سيكولوجيا الفن ، موسكو ١٩٦٥ ، ص ٣٠٤ - ٣١٧

على أساس التجربة الوراثية والمكتسبة . ويجري المخ هذا التقويم بمقارنة معلوماته عن الوسائل الضرورية المتوقعة لبلوغ هذه الغاية (أي لاشباع الحاجة) بالمعلومات عن الوسائل التي يمتكلها الشخص فعلاً . وهذا هو السبب الذي جعلنا نطلق على نظريتنا هذه « النظرية الاعلامية في الانفعالات » . أما الانفعال في وجهه الفيزيولوجي العصبي فهو حالة فعالة لمنظومة تكوينات مخّية خاصة تدفع الانسان الى تغيير سلوكه باتجاه تخفيف هذه الحالة الى الحّد الأدنى (إضعافها ، قطعها ، تحويلها ، كبتها) أو تصعيدها الى الحّد الأعلى (تقويتها ، اطالتها ، تكرارها) .

ففي الحالة التي يكون فيها احتمال اشباع الحاجة ضئيلا تنشأ الانفعالات السلبية كالخوف والغضب والحزن واليأس . وعندما يزداد احتمال بلوغ الهدف بالمقارنة مع التوقّع السابق تنشأ الانفعالات الايجابية كالرضى والفرح والإعجاب . أما التطابق الدقيق بين التوقع والإعلام المتوفر ، أما التطابق الكامل بين الضروري والموجود فيجعل الانفعال نافلاً . مثال ذلك أفعالنا الروتينية ، الآلية أحياناً التي نقوم بها دون أن نشعر بقلق أو حماسة خاصة ، وهذه القاعدة كلية . وما أساس التقسيم التجريبي للانفعالات الى ذكية وغير ذكية ، دنيا ، وعليا . . الخ إلا التنّوع اللامحدود والاختلافات النوعية لتلك الحاجات التي تنشأ على أساسها حالة انفعالية معينة . وهكذا على سبيل المثال أخذنا نطلق على الانفعالات التي تنشأ على أساس

٤ - سيمونوف ب . ف : نظرية الانعكاس وسيكوفيزيولوجيا الانفعالات ، موسكو ١٩٧٠

حاجات الانسان الاجتماعية والمثالية المعقدة (الثقافية ، الروحية) اسم المشاعر ، ولعامل الزمن أهميته الكبيرة في هذا المجال . فرد الفعل الانفعالي الاندفاعي يسميه عالمُ النفس الهيجان . بينما يطلق على الحالة الانفعالية التي تستمر ساعات أو أياماً أو أسابيع اسم المزاج .

وعلينا الا ننسى أن سيطرة حاجة واحدة سيطرة مطلقة حالة نادرة نسبياً . والحالة الأرجح هي حالة التعايش الديناميكي لحاجتين أو ثلاث أو أكثر ذات درجات متفاوتة من احتمال اشباعها في نفس الوقت . في هذه الحالة تولد كل من هذه الحاجات انفعالها الخاص ، وتؤلف مجتمعة ايقاعاً انفعالياً واحداً معقداً (« نفسي تفيض بالحزن والفرح » ، « حزني مضيء ») كثيراً مايورده نقاد « النظرية الاعلامية في الانفعالات » كمثال يدحض نظريتنا في رأيهم .

والآن نستطيع العودة الى مسألة الانفعالات التي تنشأ لدى قراءة العمل الأدبي ، وبطبيعة الحال لايوجد هنا « نقل مشاعر » مباشر من الكاتب الى القارىء . فهنا ، كما في الحالات الأخرى التي يمرّ بها الانسان في حياته ، تتوقف انفعالات القارىء على طبيعة حاجاته هو وعلى مدى اشباع الاعلام الذي يتضمنه العمل الأدبي لها . وليس لمشاعر الكاتب من أهمية إلا بوصفها أهم عامل في نشاطه الإبداعي وهو أمر سنفصل فيه لاحقاً . إن التأكيد بأن « الموسيقيين الحقيقيين لايعبرّون عن مشاعر في موسيقاهم ، بل يحولّون موسيقاهم إلى مشاعر » صحيح بالنسبة إلي أي ابداع فني بما فيه الإبداع الأدبي . إن الشيء الذي يعني القارىء ليس انفعالات الكاتب بل

« ذلك الإعلام » الذي يحمله إليه العمل الأدبي عن العالم والإنسان عن الخير والشر ، عن الحق والعدل (أو لايحمله !) . يقول وليم غولدينغ : « الفن ينطوي جزئياً على إعلام . وحسب . . أما ماعداه فاكتشاف . . ومع هذا فإني أؤمن إيماناً عميقاً بأن الفن الذي لاينطوي على إعلام باطل »[٥].

فبقدر مايكون إعلام الفنان قيماً وبقدر مايكون فيه من سمات اكتشاف الحقيقة الكبرى ، حقيقة العالم والانسان ، وبقدر ماتكون حاجة المشاهد (القارىء ، السامع) إلى إدراك هذه الحقيقة قوية من ناحية أخرى ، يكون تجاوب المتلقي الانفعالي أقوى ومفعول المشاركة الوجدانية المنشود أظهر .

وبما أن انفعالات كاتب العمل الأدبي وانفعالات قارىء هذا العمل ، وأخيرا انفعالات شخوص الرواية (أو القصة أو القصيدة أو الدراما) تتوقف بقدر واحد على حاجاتهم ودوافعهم ، يترتب علينا الانتقال الى تحليل أكثر تفصيلاً لهذا المجال من النشاط العصبي (النفسي) الأعلى لدى الانسان .

حاجات الانسان بوصفها أساساً ومحركاً لسلوكه

« لا يستطيع أحد أن يفعل شيئا الا اذا كان بفرض اشباع حاجة من حاجاته وإشباع عضو هذه الحاجة (ك . ماركس)[٦] . . » اعتاد الناس تفسير أفعالهم انطلاقا من تفكيرهم بدل تفسيرها انطلاقاً من حاجاتهم (التي

٥ - مجلة « الآداب الاجنبية » ١٩٧٣ ، العدد ١٠ ، ص ٢١٦

٦ - ماركس وانغلز : المؤلفات الطبعة الثانية ج ٣ ، ص ٢٤٥

تنعكس في رؤ وسهم ، بالطبع ، وتدرك) ، ومن هنا نشأت بمرور الوقت تلك النظرة المثالية التي استحوذت على عقول الناس لاسيما بعد انهيار العالم القديم » (ف . انغلز)[٧] .

إن الحاجة هي تبعية الأجسام الحية تبعية اصطفائية لعوامل الوسط الخارجي الجوهرية لبقائها وتطورها الذاتي ، هي مصدر فعالية الأجهزة الحية والدافع الى سلوكها في العالم المحيط بها وغايته . يقول س . ل . روبنشيتن : « يجب أن يحتل مفهوم الحاجة ، بخلاف مفهوم الغريزة ، مكاناً عظيماً في علم النفس الماركسي اللينيني ويدخل في رصيد مفاهيمه الأساسية . وعلى أساس مفهوم الحاجة هذا تأخذ التعاليم المتعلقة بتعليل السلوك الانساني منحى آخر في الطرح مغايراً من حيث المبدأ للطرح الذي تقدمه عادة الدراسات القائمة على تعليله بالغرائز والميول »[٨] . ذلك ان « الغريزة » تفترض دائماً شيئاً فطرياً مشتركاً بين الانسان والحيوان بينما الحاجة يمكن أن تكون معقدة ومشروطة اجتماعياً الى أبعد الحدود .

هذه النظرة الى الحاجة على أنها نقطة الانطلاق في تنظيم السلوك كان يأخذ بها أيضاً مؤسس علم النفس المادي إ . م . سيتشينوف . فقد كتب يقول : « حاجات الانسان الحياتية تولد أفعال إرادة وهذه تستتبع أفعالاً ؛ آنذاك يصبح فعل الإرادة دافعاً أوغاية ، والحركة فعلاً أووسيلة لبلوغ الغاية . . ولولا فعل الإرادة كدافع أو محرض لأصبحت الحركة دون معنى»[٩]

٧ - المصدر السابق ، ج ٢٠ ، ص ٤٩٣

٨ - روبنشتين س . ل : قضايا علم النفس العام موسكو ١٩٧٦ ، ص ٤٠

٩ - سيتشينوف إ . م : مؤلفات مختارة ، ج١ ، ص ٥١٦

. وكان سيتشينوف يستهجن أن ينظر الى الإرادة على أنها مرجع منظم تعلو في بنية الانسان على دائرة الحاجات والدوافع ، ذلك أنه « لا الحياة اليومية ولا تاريخ الشعوب عرفا حالة واحدة استطاعت فيها الإرادة الباردة اللاشخصية وحدها أن تقوم بأي مأثرة أخلاقية . فقد كان الى جانبها على الدوام دافع أخلاقي ما يحكمها سواء اتخذ شكل فكرة حماسية أوعاطفة . . (الارادة) وحدها وبذاتها لاتستطيع أن تفعل ، وهي إذ تفعل فإنما باسم العقل أو العاطفة تفعل . . »[١٠] .

ونحن من جانبا ، وانطلاقاً من أفكار سيتشينوف وبافلوف الرئيسية ، نرى في الإرادة فعالية مشروطة بالحاجة الى تجاوز العقبات - وهي حالة مستقلة نسبياً ومتممة للدوافع الذي هو المحرّض على السلوك ابتداء[١١] .

وتتشكل الإرادة في عملية تطورها على أساس المنعكس الفطري (« منعكس الحرية » عند بافلوف) والباعث المناسب له هو التقييد القسري لفعالية الحركة . ويتصف نشاط آليات الإرادة عند الانسان بردود فعلها على « المعيقات الداخلية » (مثال ذلك « الدوافع المتنافسة ») وكذلك تدخل الوعي المدرك للحريّة على أنها ضرورة موعاة . أما رفض هذه الضرورة الموعاة فتفهمه الذات على أنه لا حرية مما يجعلها تنشط آلية الجهد الإرادي .

---

١٠ - المصدر السابق ، ص ٢٦٠ « التشديد لسيتشينوف »

١١ - سيمونوف ب . ف : النشاط العصبي الأعلى عند الانسان موسكو ١٩٧٥ ، ص ١١٤ - ١٢٣

فإذا كانت الانفعالات تبدو مؤشراً على وجود الحاجات وعلى درجة إلحاحها وإشباعها ، فإن الإرادة هي التي تظهر أوضح ماتظهر الحاجة المسيطرة باستمرار في بنية شخص منا . وبما أن « حرية الانسان ليست نتيجة مالديه من قوة سلبية على تحاشي هذا الشيء أو ذاك ، بل نتيجة قوته الايجابية على إظهار فرديته الحقيقة »[١٢] ، فان الارادة « التي تخدم » هذه الحاجة المسيطرة بصفتها مصدر الفعالية المتممة للدافع الذي هو المحرض على السلوك بداءة ، هي بالذات تجلي « الفردية الحقيقة » لشخص ما . وهذا هو السبب الذي جعل الناس منذ القدم يلجؤون في المواقف البالغة التعقيد الى مبدأ الطوعية الذي اكُتشف بالتجربة وبرهن على قيمته في الواقع .

إن الموضوعة الأساسية عن الحاجات في نظام أي تجليات للنفس الانسانية - سواء التفكير أو الارادة أو المشاعر - تنبع بالضرورة من نظريتنا الاعلامية في الانفعالات . وفي يقيننا أنه هذا هو السبب الذي جعل « مسألة الحاجات والدوافع المسألة المركزية في علم النفس الفيزيولجي (السيكوفيزيولوجيا) وربّما في علم النفس المعاصر كله . ويبين نجاح فيزيولوجيا أعصاب الدماغ بوضوح متزايد أنه لايمكن فهم فيزيولوجيا الجمل الحسية أو أشكال الاستجابات دون أخذ عامل الدافع بعين الاعتبار . وتكتسب هذه المسألة حدّة وقيمة أكبر في مجال سيكوفيزيولوجيا وسيكولوجيا الإنسان . فقد أصبح من الواضح تماماً وجود جملة من القوانين بين العوامل الاجتماعية والاقتصادية وشخصية الفرد تحدد لحظات كثيرة في تربية الانسان

١٢ - ماركس وانغلز ؛ المؤلفات ، الطبعة الثانية ، ج٢ ، ص ١٤٥

وسلوكه الاجتماعي [١٣] . ولهذا كان من الطبيعي ان نستقبل بالرضى الكبير النتيجة التي انتهى اليها ب . ف . لوموف من تحليله العلاقة بين الاجتماعي والبيولوجي بوصفها المسألة المنهجية لعلم النفس إذ يقول : « إذا تتبعنا اتجاهات تطور علم النفس المعاصر تبينا دون جهد أن مسألة الدوافع تصبح أكثر فأكثر المركز المنطقي لهذا العلم . . فالحاجات من خواص الانسان التكاملية حتى لكأنها « تتغلغل » في كل نظامه النفسي وكل مستويات سيكولوجيته شاملة كل صفاته البيولوجية والنفسية والاجتماعية . . .

ومبدأ الوحدانية في فهم الانسان يجب ان يتحقق على نحو متماسك لدى دراسة كل نظام حاجاته المادية والروحية على السواء »[١٤] .

ولا يوجد حتى الآن تصنيف متفق عليه لحاجات الانسان . فماسلو يرى فيه (١٥) حاجة أساسية وماك داوغل (١٨) ، وميري وبيرون (٢٠) . ومن المتواضع عليه في علم النفس المعاصر تقسيم الحاجات الى مجموعتين كبيرتين : الأولى هي مجموعة الحاجات التي تؤمن بقاء الفرد والنوع (« حاجات البقاء ») والثانية هي دوافع من مستوى أرقى يتم بفضلها نمو الكائنات الحية بأوسع معاني الكلمة : من النمو الفردي والإدراك الفيزيائي للمكان حتى الإدراك العقلي للمجهول والتطور بوصفه تعقيداً متصاعداً للبنية

١٣ - سيمونوف ب . ف : المسائل المنهجية لفيزيولوجيا النشاط العصبي الأعلى لينينغراد ١٩٧٠ ، ص ٢٥

١٤ - لوموف ف . ف : العلاقة بين الاجتماعي والبيولوجي بوصفها المسألة المنهجية لعلم النفس . قضايا الفلسفة ، ١٩٧٦ ، العدد ٤ ، ص ٩٣ - ٩٤

الـداخليـة (« حاجات النمو ») وهذا التصنيف يعكس بشكل موفق جانبي العملية المتناقضة ديالكتيكياً لحركة الكائنات الحية وتطورها .

ويعتبر الحفاظ على الذات والذرية والمجموعة والجماعة البشرية والنوع « والتكيف مع الـوسـط الخارجي » تقليدياً ، المبدأ الأول للسلوكية في مختلف تنويعاتها . ويكتسب هذا المبدأ أهمية كلية شاملة عند ب . ف . سيكنر[١٥] . فهـو يؤكـد أن البقـاء هو القيمـة الـوحيـدة التي سيحكم في نهايـة الأمـر على أساسها على الحضارة وأي ممارسة تدعم البقاء تملك هذه القيمة بداءةً .

وللماركسيـة وجهـة نظـر أخـرى في الموضوع . ذلك أنها ترى ان « . . أسمى القيم الثقافية والأخلاقية هي تلك التي تساعد الى اقصى حدّ ممكن في تطوير المجتمع وتطوير الشخصية الانسانية تطويراً متكاملاً »[١٦] .

سيكـون من السخف والسـذاجـة بطبيعـة الأمـر انكـار الاهمية البالغة للميـل الى البقـاء عامـة : إذ لا يقـوى على التطـور والتقـدم إلا القادر على البقـاء . لكن البقـاء ليس سوى الشـرط الـلازم للتطور ، وليس جوهر حركة الطبيعـة الحيـة التي أوجـدت الانسـان والتي تشمله في آن ، وليس الاتجـاه المسيطر في هذه الحركة .

اوردنـا سابقـاً جملة براهـين تدعم قولنا ان التعايش الديناميكي لنزعتي البقـاء (بقـاء الانسان نفسه والناس ونتائج عمله أو عملهم الخ) والتطور هو

١٥ - . Skinner B . F , Beyond freedom and dygnity New york ,1971

١٦ - فيدوسييف ب . ف : الثقافة والاخلاق - قضايا الفلسفة ١٩٧٣ ، عدد ٤ ، ص ٣٦ « التشديد لي ، -ب ، س »

بالضبط الذي حكم ظهور أنواع الانفعالات الأساسية : السلبية والايجـابيـة »[١٧] . وقـد سبق لأنغلز أن نوّه بأواصـر القـربى بين الانفعـالات الايجابية ونزعة التطور في رسالته الى ب . ل . لافروف اذ قال : « لقد أصبح ممكنا بفضل الانتاج ، كما جاء في إشارتكم الصحيحة ، « أن يكافح الانسان ليس من أجـل وجـوده وحسب ، وانـما في سبيـل لذتـه وفي سبيـل مضـاعفـة لذاتـه . . وأن يكـون مستعـداً للامتنـاع عن اللذات الـدنيـا في سبيل اللذة الأسمى » . . إن الصراع في سبيل الوجود - فيما لو سلّمنا بصحة هذه المقولة مؤقتـاً - يتحـول ، اذن ، الى صراع من أجـل اللذة ، الى صراع ليس من أجل وسائل الوجود وحدها بل يتعداها الى وسائل التطوير الى وسائل التطوير المنتجـة اجتـماعيـاً ، وهنـا لايعـود ممكنـا استخـدام المقولات المأخوذة من عالم الحيوان »[١٨]

ويتجلى الفـرق بين الانفعـالات الايجـابيـة والسلبية حتى لدى إشباع حاجـات اوليـة نسبيـاً كحاجة الطعام . فالجوع الشديد وهو انفعال سلبي ، يدفع الانسان إلى اشباعه بأي مواد تؤكل حتى يتخلص من هذا الاحساس المـؤلم . والـرضى النـاجم عن الطعـام يتطلب بالضرورة التنويع فيه والبحث عن مواد تغذية جديدة وعن طرق جديدة في المزج بينها واعدادها ونقول بعبارة

---

١٧ - سيمونوف ب . ف : نظرية الانعكاس وسيكوفيزيولوجيا الانفعالات

١٨ - ماركس وانغلز: المؤلفات - الطبعة الثانية ج٣٤ ، ص ١٣٧ « والتشديد لانغلز ، -ب . س . »

أخـرى ان الحـاجـات الايجـابية حتى على مستوى حاجة الطعام تؤدي دوراً خلاقاً وتساعد في استيعاب مجالات جديدة من مجالات الواقع .

وفي مجال السلوك الجنسي تتعـاظم أهميـة الانفعـالات الايجابية . بينما تتضـاءل أهميـة السلبية . فمهما كانت العفة شاقة الا «أن أحداً لم يمت منها » كما يقـال ، وذلـك بخـلاف الجوع . ويبين لنا تحليل حالات الانتحار بسبب الحب من طرف واحد أن مايدفع الانسان اليه ليس الحرمان الجنسي بل عدم اشباع حاجات الانسان الاجتماعية وخصوصاً المثالية منها . فمصدر المأساة في الحب التعس بواعث انسـانيـة عليـا كالثقـة المخـدوعـة وانهيـار المثل العليا في الحيـــاة ، وفـقـــدان الانســـان معـنـى وجـــوده . وتبـــين دراســـة حالات الهبـــوط depression) ذات المنشأ النفسي (وليس العضـوي » أنـه لا صعـوبـات الحيـاة ولا الاخفـاق الاجتـماعي يؤدي اليها . ومهما يكن السبب المباشر للهبوط - كخداع الحبيب أو فقد منصب وظيفي . . الخ فليس الفراق نفسـه ولا فقـد المركز الاجتماعي نفسه هما اللذان يتسببان في هذه الحالة ، بل الشعـور بالظلم فيـما حدث وامتهـان المثـل العليـا لهذا الشخص وانتهاكها . وعلى وجـه العمـوم تكـون الانفعـالات السلبيـة التي تنشأ على أساس عدم إشباع الحاجات الاجتماعية عدوانية . فالانسان يميل حين يخفق اجتماعياً إلى اتهـام الآخـرين والقـاء التبعـة على الظـروف ودسائس المبغضين . وفي هذه الاحوال لاتتهدده حالة الهبوط .

وأخـيراً نجـد في قمـة التسلسـل الهـرمي للحـاجـات دوافـع تغـذيهـا انفعالات تكاد تكون ايجابية حصرا ، تلكم هي حاجة المعرفة ووجهها الآخر الذي يصعب التعبير عنه بالكلمات وهوحاجة انشاء الأعمال الفنية وإدراكها أو

مايسمى بعبارة أخرى الحاجة الجمالية . وبخلاف الجوع والعطش والجنس والحاجة الى شغل مكان معين في المجموعة . . الخ لاتملك اي من المعرفة العلمية النظرية أو الفن أي جهاز للعقاب داخل الدماغ . فجاذبيتهما لاتتأتى الا من الفرح الناجم عن بلوغ الحقيقة الا من اللذة السامية التي يشعر بها الانسان لدى اتصاله بالرائع .

ونستطيع تقسيم حاجات الانسان الى ثلاث مجموعات أساسية :

أولاً : الحاجات البيولوجية وماتفرضه من حاجات مادية الى الغذاء واللباس والسكن والتقنية الضرورية لايجاد الخيرات المادية ، وفي وسائل الحماية من التأثيرات الضارة وفي تأمين وجوده الفردي والنوعي .

ثانياً : الحاجات الاجتماعية بمعناها الاجتماعي الضيق (ذلك أن كل دوافع الانسان مشروطة اجتماعياً) والمقصود هنا هو حاجة الانتماء الى جماعة اجتماعية وشغل مكان معين في هذه الجماعة ، والتمتع بمحبة الآخرين واهتمامهم واحترامهم . ولقد عفا الزمن على المحاولات الرامية الى إرجاع كل تنوع حاجات الانسان الاجتماعية الى « التعطش للسلطة » فهذه ليست سوى نوع واحد من الأنواع الكثيرة لهذه المجموعة من الدوافع .

ثالثاً وأخيراً : مجموعة الحاجات التي درج على تسميتها الحاجات الثقافية ، الروحية أو المثالية ، إنها حاجة المعرفة بأوسع معانيها ، معرفة العالم المحيط بنا ومكاننا فيه ، معرفة معنى وجودنا على هذه الأرض وغايته .

وتقسم الحاجات البيولوجية والاجتماعية بدورها الى مجموعتين : « حاجات لي » و« حاجات لأجل الآخرين » . ومن أمثلة الحاجات

البيولوجية المتعلقة « بالآخرين » غريزة الأبوة أو الأمومة التي تتبارى بنجاح مع غريزة بيولوجية أخرى هي غريزة البقاء . أما الحاجات المعرفية الإبداعية المثالية فلا تخضع لهذا التقسيم إذ لاتوجد حقائق موضوعية « من أجلي » « ومن أجل الآخرين » أما كون الحاجات المادية والاجتماعية على تنوعها وتناقضها تتدخل وتشارك في عملية استخدام نتائج المعرفة فأمر آخر تماماً .

ومن المهم لفهم قوانين السلوك الانساني فهماً صحيحاً أن نتذكر أن الحاجات في المجموعات الثلاث المذكورة آنفاً ، رغم ترابطها الوثيق فيما بينها ، لايمكن استنتاج احداها من الأخرى أو استبدالها بها .

فأي إشباع لأي نوع منها لايعفي الإنسان من ضرورة إشباع النوع الآخر : ومن هنا بالضبط ينشأ مايسمى بلا روحية مجتمع الاستهلاك . إن الترتيب المشخص للحاجات وتسلسلها وهيمنة بعض هذه الدوافع والدور المساعد لتلك تشكل في مجموعها « نواة » الشخصية الانسانية وصفاتها الجوهرية . ومع أن الانسان أي انسان يتصف بهذه المجموعات الثلاث من الحاجات ومع أن الناس الذين ينتمون الى عصر واحد وتشكيلة اجتماعية اقتصادية وطبقية وقومية واحدة يمتلكون بنية حاجات مشروطة تاريخياً متشابهة ، الا أن تركيبهم الفردي وحيد ويحدد الى أبعد الحدود تفرّد شخصيتهم . أما سمات الشخصية الأخرى - الملكات الخاصة ، الطباع ، الانتماء الى مايسمى النوع « المفكر » أو « المبدع » (وهو انتماء يعود ، كما تبين في الفترة الأخيرة ، الى عدم التطابق الوظيفي بين نصفي كرة المخ الكبيرين) الخ - فقيمتها كبيرة لكنها ثانوية . ذلك أن تطور أي شخصية هو

قبل كل شيء وفي المقام الأول اغتناء حاجات هذا الانسان و« تصعيدها » (لينين) واستعداده للتخلي عن « اللذات الدنيا في سبيل اللذة الأسمى » (انغلز) وفق القانون اللينيني في « تصعيد الحاجات » [١٩] .

يتميز الانسان « بلا محدودية حاجاته وقابليتها للتوسع باستمرار » (ك . ماركس)[٢٠] . وعدم قابلية هذه الحاجات للإشباع هو شرط تطور الانسان واقتحامه مجالات جديدة من مجالات الواقع وبحثه عن وسائل وطرق جديدة ، مجهولة لاشباعها . وعدم القابلية هذا يتطلب بالضرورة معايير إشباع اجتماعية بطبيعتها ومتغيره تاريخياً ، تخضع لها حاجاته المعرفية بالاضافة الى حاجاته البيولوجية والاجتماعية . فكل فترة تاريخية وكل تشكيلة اجتماعية وكل طبقة تتميز بجملة معايير : عادات ، قوانين ، أخلاق ، ايديولوجيا .

وننهي استعراضنا لمسألة الحاجات بالتأكيد التالي : ان الحاجة التي تدفع الانسان الى انشاء العمل الأدبي نوع من الحاجة الى معرفة العالم المحيط به وتجسيد نتائج هذه المعرفة بما يجعلها في متناول ادراك المعاصرين والأجيال اللاحقة . والابداع الأدبي ، كأي نشاط آخر ، يمكنه ان يكون في الوقت نفسه وسيلة إشباع حاجات أخرى - مادية واجتماعية - تتعايش في الكاتب ؛ لكن الفن يكفّ عن أن يكون فناً في اللحظة التي يستبعد فيها منه النزوع « اللامغرض » و « القائم بذاته » الى المعرفة من مجموعة الدوافع الأخرى .

---

١٩ - لينن : المؤلفات الكاملة ، ج١ ، ص ١٠١ - ١٠٢

٢٠ - أرشيف ماركس وانغلز : موسكو ١٩٣٥ ، ج٢ « ٧ » ، ص ٢٣٥

غايـة العلم هي الحقيقـة الصغـرى وغـايـة الفن هي الحقيقة الكبرى يقول ل . ن . تولستوي في مقدمته لمؤلفات غي دي موباسان : « انما الفنان فنـان لأنـه يرى الأشيـاء كما هي لا كما يريـد أن يراهـا . حامـل المـوهبـة - الانسـان - قد يخطىء أمـا المـوهبـة . . فتكشف إشيـاء ، تعـريهـا وتجعـل الانـسـان يحبـهـا اذا كانـت جديـرة بالحـب ويبغضهـا اذا كانت جديـرة بالبغض »[٢١] . الحقيقـة الصغـرى والحقيقـة الكـبرى - من هذا الفـرق الأسـاسي بين شكـلي نشـاط الانسـان المعـرفي هذين تنشأ صفـاتهـما الثانوية الأخـرى : التعـامـل بالمفـاهيم أو الصـور الحسية المباشرة ، أهمية القياس في العلم « وعـدم قابليـة » العمـل الفني المبـدئيـة للقياس ، إشباع الحاجة الى معـرفـة الحقيقـة النسبيـة أو المطلقـة - عكس العـالم كما هو أو العالم في علاقته بالانسان . . الخ .

وبـما أن الفن نشـاط معـرفي - فلحظـة هذا النشـاط الاسـاسيـة هي الاكتشاف حيث تلعب الظاهرة التي أطلق عليها ستانيسلافسكي اسم الهدف الأعلى دور الفـرضيـة . يقـول ستانيسلافسكي : « كما تنمو النبتة من البذرة كذلـك عمـل الكـاتب ينمو من فكره وعاطفته . . وتعالوا نسمي هذا الهدف الأسـاسي الـرئيسي الشـامـل الـذي يشـد إليـه الأهداف الأخرى كلها دون استثناء . . الهدف الأعلى لعمل الكاتب »[٢٢] .

هذا الهـدف الأعلى رغم اتصـالـه الـوثيق بنظرة الفنان الى العالم وبموقفه

---

٢١ - تولستوي ل . ن : المؤلفات الكاملة ، ج٣٠ ، ص٢٠

٢٢ - ستانيسلافسكي ك . س : المؤلفات ، موسكو ١٩٥٤ ، ج٢ ، ص ٣٣٢

المواطني هو غيرهما ، ذلك أنه مقولة جمالية وظاهرة متميزة خاصة بالنشاط الفني .

ولننتقل الى دراسة تفاعل الوعي وأشكال النشاط السيكولوجي غير الموعاة في مجرى الابداع الفني .

الوعي ، الوعي الباطن ، الوعي الأعلى في نشاط الإنسان الابداعي .

الوعي هوالتفكير مع الآخر ؛ أن تعي معناه أنك اكتسبت قدرة على أن تعلم ، على أن تنقل معرفتك الى الآخرين . فالوعي ذوطابع اجتماعي بدءاً ، واجتماعية هذا الشكل من أشكال نشاط الدماغ العاكس قائمة في بنيته الداخلية (بنية الدماغ) .

وإلى جانب الوعي هناك دائرة واسعة من الحالات النفسية غير الموعاة . فهناك التذكر اللاإرادي والأفعال الآلية ، وإدراك المنبهات الخارجية الضعيفة ومراحل معينة من الإبداع . وعلى هذا النوع الأخير من النشاط اللاواعي يترتب علينا أن نتوقف وقفة خاصة . يؤكد عالم النفس الاميركي ل . س . كيوبي « ان الشخصية الإبداعية هي شخصية تحتفظ على نحوما لازال عرضياً حتى الآن بالقدرة على استخدام وظائف وعيها الباطن بأيسر مما تستطيعه أخرى ربما لاتقل عنها موهبة بالقوة لا بالفعل »[٢٣] . ويقول

٢٣ - أوردها ياروشفسكي م . غ : سيكولوجيا الفلسفة - قضايا الفلسفة ١٩٦٧ ، العدد ٥ ، ص ٨٥

فيرناوسكي : « الحدس والالهام وهما أساس الاكتشافات الكبر ى التي تستند فيما بعد الى التحليل المنطقي وتسير على طريقة لايستثيرهما الفكر العلمي أو المنطقي ، ولا يرتبطـان بالكلمـة والمفهـوم في نشـوئهما »[٢٤] . وفي رأي بارويان « ان الحـدس العلمي إحسـاس (وإحسـاس قبـل كل شيء !) بآفاق تطور المسألـة فالحـدس يبـدأ من حيث تسـدّ طرق التحليـل العلمية وتبدو المعارف المتـوفـرة عاجـزة بمفـردهـا . ان جذور الحدس النفسية تكمن في قوة التفكير المجـرد وصبغتـه الانفعـاليتين . وهذه القوة « التي تصل حدّ الهوى » كما يقول بافلوف هي « الشيء الـرئيسي في عمـل العـالم . ان موقف العـالم الانفعـالي الخـاص من المسألـة هو الذي يمكنه من رؤ ية مالايراه الآخرون ، من مخالفة المنطق والعقل السليم ، من الدهشة مما لايدهش منه الآخرون ومن تجاوز « القواعد الذهبية » المألوفة . وهذه الصفة هي أحد العوامل الرئيسية التي تحكم نموّ العلم »[٢٥] .

ولنشر هنا إلى أن انفعالية الحدس الواضحة يجب ألا تضللنا . فالانفعال بذاته لايحمل أي إعلام اضافي ولا هو مصدر أي معرفة جديدة ، أما امكانية تقويم احتمال بلوغ الهدف على مستوى الوعي كما على مستوى اللاوعي فأمر آخر . والحدس بالضبط مثال على التنبؤ اللاواعي حيث تقدير الاقتراب من الهـدف أو الابتعـاد عنـه يتم اولاً على شكل « توقع » انفعالي « للحلّ » يدفع

٢٤ - فيرنـادسكي ف . إ : تأمـلات عالم طبيعـة : الفكـر العلمي ظاهـرةً كونيـةً موسكو ١٩٧٧ ، الكتاب الثاني ص ١١١

٢٥ - بارويان أو : موهبة الباحث - ليتيراتورنايا غازيتا ، ١٩٦٧ ، عدد ١٠ ، ص ١١

الانسان الى المزيد من تحليل الموقف الذي أوجد هذا الانفعال . فردّ فعل الشخص الانفعالي لحظة نشوء الفرضية مثلاً يمكن أن يسجل بموضوعية بشكل اهتزازات مقدرات الجلد الكهربائية[٢٦] .

هناك عدد هائل من مظاهر نشاط الدماغ التي لاتدرك يطلق عليه اسم « الوعي الباطن » ، مما ينتج عنه وضع ظواهر متباعدة فيما بينها كل البعد في مقام واحد . مثال ذلك حركات الجهاز الداخلي لجسم الانسان التي تؤثر في حالته النفسية والاستبصارات الإبداعية للفنان العظيم . ان شمل عمليات مختلفة كل هذا الاختلاف بمفهوم واحد يهدد « بالانغلاق القصير » لتصوراتنا عن طبيعة هذه العمليات . عندئذٍ ينشأ الوهم القائل بعدم الوجود الموضوعي للأسباب والنتائج ، وبالتالي يتم إرجاع أعقد مظاهر النفسية الانسانية التي ولدتها الحاجات الاجتماعية والمثالية قسراً الى مصدر بيولوجي واحد وحيد قد يكون الجنس أو الحاجة الى الطعام . وفي رأي بعض الباحثين « أن الدوافع العليا تنشأ على أساس آليات الدوافع البيولوجية الدنيا . . وعلى أساس حاجة الطعام وإشباعها بالذات تقوم في الواقع كل (؟ !) أشكال النشاط الهادف »[٢٧] . وكم كان دوستويفسكي أثقب نظراً حين أكدّ « أن الانسان ، إذا لم يكن له تصور راسخ عن ذاته وعن غاية حياته ، لن

٢٦ - سيمونوف ب . ف : ايغانوف إ . س ؛ فالويغام . ن : بحث تجريبي في المنعكسات الانفعالية الايجابية ، مجلة علم النفس ١٩٦٨ العدد ٦ ، ص ٩٣٢ - ٩٣٩ . تيخوميروف أو . ك : فينوغرادوف يد . إ : الانفعالات في وظيفتها الاكتشافية . الابحاث السيكولوجية ، موسكو ١٩٦٩ النشرة الاولى ، ص ٣ - ٢٤

٢٧ - سوداكوف ك . ف : الدوافع البيولوجية ، موسكو ١٩٧١ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٦ .

يرضى بالحياة ويفضل أن يدمر نفسه على أن يبقى على وجه هذه البسيطة حتى ولو كان غارقاً في الخيرات المادية »[٢٨] . ويعرف أطباء العيادات النفسية أن فقدان الانسان لمعنى وجوده يكون في أحيان كثيرة سبب الانتحار في حالات الهبوط التي تحدث على خلفية الرفاه المادي الكامل .

إن الميل إلى تقسيم مظاهر الحالات النفسية اللاواعية وضبطها والتمييز بينها أصبح الآن حاجة ملحّة يسلم بها الجميع . وقد ظهر هذا الميل بوضوح في أبحاث ستانيسلافسكي الخلاقة .

انطلق ستانيسلافسكي من الرفض الجريء لمحاولات التدخل الارادي المباشر في جوانب العملية الابداعية التي لايمكن إدراكها ولا تقع مبدئيا تحت أي تعقيد (Formalisation) لايجوز لنا أن نقتصر العواطف لايجوز لنا أن نغار ونحب ونتألم من أجل الغيرة أو الحب أو الألم بذاته ، علينا ألا نفسر عواطفنا ، فمآل ذلك كله هو أبشع أنواع التصنع التمثيلي . . هذه العواطف تنتج تلقائياً عن أشياء سابقة أثارت الغيرة أو الحب أو الألم . في هذه الاشياء السابقة فكرّوا ملّياً وأوجدوها حولكم . أما النتائج فلا تشغلوا انفسكم بها »[٢٩] .

وفي حين أنكر ستانيسلافسكي امكانية التأثير الارداي المباشر في آلية الابداع اللاواعية ، الحّ في الوقت نفسه على وجود طرق غير مباشرة للتأثير

٢٨ - دوستويفسكي ف . م : المؤلفات في ثلاثين جزءاً ، لينينغراد ١٩٧٦ ، ج ١٤ ص ٢٣٢

٢٩ - ستانيسلافسكي ك . س : المؤلفات ج٢ ، ص ٥١

الواعي في هذه الآلية . وأداة هذا التأثير هي التقنية النفسية المهينة للفنان التي يترتب عليها أن تحل مهمتين : اعداد التربة لنشاط الوعي الباطن وعدم اعاقته في آن . « فلنترك مجال الوعي الباطن الى هذه الساحرة التي تسمى الطبيعة ، ولنتحول نحن الى ما في متناول ادراكنا الى المقاربة الواعية للابداع ، الى أساليب علم النفس التقني الواعية . فهي تقول لنا أول ماتقول : علينا الا نعيق الوعي الباطن حين يباشر عمله »[٣٠] .

كان ف . إ . شالابين يؤكد قائلاً : « لانستطيع القول كيف تنشأ الصورة التمثيلية لدى الممثل وتتشكل الا على وجه التقريب .

فهذا على الأرجح ليس سوى نصف هذه العملية المعقدة ، ليس سوى الجانب الذي نستطيع تبينه . الا أني أقول ان الجزء الواعي من عمل الممثل ذو أهمية بالغة ولعلها ان تكون حاسمة إذ إنه يحفز الحدس ويغذيه ويخصبه . . أما الالهام الذي يشرق على الممثل لدى تمثيله اللاحق لدوره فأمر يأتي دوره لاحقا . فهو لايستطيع ان يعرفه وليس عليه ان يفكر فيه بل إنه سيأتيه دون وعيه ، ولايستطيع بأي جهد أوبأي فعل ارادي تحديده مسبقا . أما ماعليه تحاشيه في اندفاعه الابداعي فيجب أن يعرفه جيداً - ان يعرفه (وأشدد على هذه الكلمة) أي عليه ان يقوم بجهد ارادي وعقلي واع ليكون نظرته الخاصة الى الدور الذي يضطلع به »[٣١] .

---

٣٠ - المصدر السابق ، ص ٢٤ .

٣١ - وردت في كتاب : شالابين ، موسكو ١٩٥٧ ج١ ، ص٢٨٧ - ٢٨٨

مايعنينا هنا بوجه خاص أن ستانيسلافسكي يستخدم باستمرار حين يتكلم عن مراحل الإبداع الفني غير الموعاة مصطلحي « الوعي الباطني والوعي الأعلى » . « فالفن الحقيقي » ، كما يرى ستانيسلافسكي ، « يجب أن يعلمنا كيف نستثير في أنفسنا عن وعي الطبيعة الإبداعية اللاواعية من أجل الإبداع العضوي الواعي الأعلى »[٣٢] ومع أننا لم ننجح في العثور على تحديد مباشر لمفهومي الوعي الباطن والوعي الأعلى في مؤلفات ستانيسلافسكي ، إلا أننا سنحاول تبيان أن إدخال مقولة الوعي الأعلى ليس نزوة عابرة بل ضرورة مبررة للتمييز بين شكلي العمليات النفسية غير الموعاة ذات الأهمية المبدئية لنظام ستانيسلافسكي كما للتصورات المعاصرة حول النشاط العصبي الأعلى لدى الإنسان . وفي أيامنا كتب العالم الرياضي يو . أ . شريدر يقول : « أشاطر تماماً رأي القائلين إنه من الأصح قرن الجانب الحدسي في الإبداع بالوعي الأعلى وليس بالوعي الباطن . . . . ذلك ان المقصود هنا ليس مايقع « تحت » الوعي العادي ، بل مايوجد « فوق » المقاربة العقلية البسيطة »[٣٣]

وقد درس ياروشفسكي في مؤلفاته التي كرّسها لدراسة الوعي الأعلى بوصفه أهم مقولة في الإبداع العلمي ضرورة التميز بين نوعي العمليات النفسية غير الموعاة[٣٤] . وقد أوضح الفرق بين الوعي الباطن والوعي الأعلى بالمثال التالي . نسيت اسم شخص ما ولم يعد بوسعي أن أتذكره حتى أعاده

٣٢ - ستانيسلافسكي ك . س : المؤلفات موسكو ١٩٥٤ . ج١ . ص ٤٠٦

٣٣ - شريدر يو . أ : نحو تأليف جديد قضايا - الفلسفة ١٩٧٦ . العدد ١٠ ، ص ١١٥

٣٤ - ياروشفسكي م . غ : تصنيف النشاط العلمي . قضايا الفلسفة ١٩٧٣ عدد ١١ ، ص ٧٤ - ٨٦

إلى ذاكرتي ، أي وعيي ، تداعٍ عارض أو ظهور ثانٍ لهذاالاسم . هذا يعني ان الاسم المنسي كان موجوداً باستمرار ، كان محفوظاً في ذاكرتي وإن كان خارج دائرة الوعي إذ كان « تحتها » . والأمر يختلف حين يكون العالم في حالة البحث عن حل لقضية ما ، فتنشأ عنده الفرضية المناسبة نتيجة نشاط الوعي الأعلى كيف « يتعرفّ » الباحث على هذه الفرضية ، ويعرفها حتى قبل اختبار صحتها بالمنطق أو التجربة ، وليس في رأسه معيار سابق ؟ على الأرجح أن هذا المعيار هو نوع من الانطباعة المضادة Anti- engramme » أو الإنطباعة السلبية Minus » « engramme - أي ثغرة في السلسلة المنطقية لوقائع معروفة سابقاً فالوعي الأعلى يتوجه على ضوء العناصر الحدّية للانقطاع الموجودة في الذاكرة فيملؤه بتحولات نفسية مفاجئة « Mutations » . هكذا على سبيل المثال ملأت الفرضية القائلة بالطبيعة الجسيمية الموجية للضوء الانقطاع بين وقائع بعضها لصالح النظرية الجسيميه في طبيعة الضوء وبعضها الآخر لصالح النظرية الموجية .

نشأت لا إدراكية ظواهر المجموعة « اللاشعورية الباطنية » الاولى بوصفها تدبيراً اقتصادياً ، بوصفها وسيلة « لإعفاء » الوعي من الوصاية التافهة على عمليات تخضع للأتمتة . ولقد لاحظ الأكاديمي أ . أ . أوربلي بشيء من الدعابة اللاذعة ان لدى أقسام الدماغ العليا مهام أخطر من مراقبة عمل الأعضاء الداخلية . ولكن كيف يجب أن نفهم عدم إدراكنا للظواهر الأعقد والأخطر في النشاط العصبي « النفسي » الأعلى للإنسان ؟ .

نعتقد أن إدراكية مراحل معينة في نشاط الدماغ الإبداعي نشأت خلال عملية التطور كضرورة لمقاومة نزعة المحافظة لدى الوعي . ذلك ان ديالكتيك

تطـور النفسيـة يتمثل في أن التجربة الجماعية للإنسانية المتركزة في الوعي يجب أن تُحمى مما هو عارض ، مريب لم تدعمـه المـمارسـة . فالطبيعـة تحافـظ على الـرصيـد المتـوفـر من المعـرفـة كما تحافـظ على الـرصيـد الـوراثي من تقلبات التأثـيرات الخـارجيـة . وميـزة الوعي هذه تنقلب ديالكتيكياً إلى نقيضها إلى عائق يحول دون إنشـاء فرضيـات جديدة مبدئياً . ونقول باختصار أن الإدراك الكامل للإبداع وامكانية تعقيده سيجعلان الإبداع . . . . مستحيلا ! وهذا هو السبب الذي يجعل التطور يحمي عملية إنشاء الفرضيات من تدخل الوعي الـذي يحتفـظ مع هذا بوظيفـة هامـة جداً هي اختيـار الفرضيات التي تعكس الـواقـع الفعـلي عكسـاً منـاسبـاً . « الحـدس هو القـدرة على إدراك الحقيقة برؤ يتهـا المبـاشـرة دون الاستنـاد إلى براهـين . . . . والحـدس كان لرؤ يـة الحقيقة ، لكنه غير كاف لإقناع الآخرين والنفس بهذه الحقيقة ومن هنا تأتي ضرورة البرهان »[٣٥] .

ولنلاحظ أن قوانين الطبيعة الأساسية تظهر في شكل محرمات . إذ يستحيل بنـاء المحـرك الـدائم (علم الـديناميكا الحرارية) ونقل الاشارة بسرعة تفوق سرعـة الضـوء في الفـراغ (نظـريـة النسبيـة) وتحـديد احداثيات الالكتر ون وسـرعتـه في آن واحـد (ميكـانيكـا الكميـات) ونحن على قنـاعـة تامة بأن استحـالـة ادراك اللحظـات الحرجة في الإبداع واللاجدوى المبدئية من وضع وصفات ولـوغـارتيـمات لها تمثـلان احـدى تلك المحرمات الاساسية . ونكرر القول ان برمجة كل مراحل الابداع دون استثناء (وكأن هذا أمر ممكن نظريا) سيجعـل الابـداع ، فيـما لو تم ، أمـراً مستحيـلاً ، والقضيـة هنـا ليست في محدوديـة معلومـاتنـا عن المظاهر العليا لنشاط الدماغ بل في التقييدات المبدئية التي فرضتها الطبيعة ذاتها .

٣٥ - سبيركين أ . غ : الحدس ، الموسوعة السوفيتية الكبرى ج١٠ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤

وعلى مستوى فيزيولوجيا الجهاز العصبي لايجوز فهم آليات الإبداع على أنها عملية عكس مباشر للعلاقات بين الأشياء الموجودة في العالم المحيط يقوم بها الدماغ . بل الارجح الاعتقاد أن هذا النشاط يتم وفق مبدأ « نشوء تحولات نفسية فجائية » وفق مبدأ انتقاء علاقات عصبية جديدة سبق ان ظهرت في الدماغ بدءاً[٣٦] .

وقد توصل ك . كوبر بعد ك . أ . تيمير يا زين بفترة طويلة الى نتيجة مماثلة . فقد كتب يقول : « أعتقد ان الجهاز البشري لاينتظر التكرار السلبي لحادثة (او حادثتين) حتى يسجل في الذاكرة وجود علاقة طبيعية . بل الأرجح أن الجهاز يقوم بمحاولة نشطة ليفرض على العالم التخمين بوجود هذه العلاقة . . فنحن نخمن دون أن ننتظر تكرار الأحداث ، ونستخلص نتائج دون أن ننتظر المقدمات . . والإنشاء الفعال للتخمينات ودحضها إنما هو نوع من الاصطفاء الطبيعي »[٣٧]

ونظراً لمحدودية معلوماتنا البالغة حول الأسس الفيزيولوجية العصبية لنشاط الوعي الأعلى يمكننا الاشارة الى بعض الوقائع الجديرة بالاهتمام وببذل المزيد من الجهد لمعالجتها .

- الدور الكبير يعود هنا دون شك الى نصف كرة المخ الايمن اللاكلامي (عند غير الأعسر) المرتبط باستعمال الصور الحسية المباشرة وبالملكات الموسيقية والتركيبية . أما بعض الباحثين الذين يربطون عمل الوعي حصراً بنصف كرة المخ الأيسر(الخاص بالكلام والمفاهيم) فيميلون إلى الانتقاص من دور نصف كرة المخ الأيمن في التجليات العليا لنشاط الدماغ ، مما يؤكد

---

٣٦ - تيميريازيف ك . أ : المؤلفات ، موسكو ١٩٣٩ ، ج ٦ ، ص ٢٢٠

٣٧ - Popper K . R .,Eccles g . c.,The self and its brain . - spriger International , 1977, P . 137 - 138

مرة أخرى ضرورة إحلال تصورات جديدة حول الوعي الأعلى بدلاً من إرجاع عمليات الابداع خطأ إلى الوعي الباطن باعتبار أن هذا أدنى بصورة واضحة من الوعي ولا تجوز مقارنته به .

- ان الدور الحاسم للحاجات والدوافع والانفعالات في نشاط الانسان المعرفي الابداعي مؤشر على الأهمية الفائقة للأقسام الجبينية في قشرة نصفي كرة المخ الكبيرين ذات الارتباطات التشريحية الوثيقة جداً بما يسمى النظام الحدي للدماغ ، أي بالأساس الفيزيولوجي العصبي لدائرة الانفعالات والدوافع .

- ان الحقيقة الفيزيولوجية « التغيرات النفسية الفجائية » تتأكد بآلية الفكرة الأساسية التي وصفها أ . أ . أوختومسكي وبقدرة البؤرة الأساسية للإثارة في الدماغ على الاستجابة لمثيرات خارجية لاميكنها أن تكون إلا بصورة افتراضية مناسبة لمنعكس معين (منعكس الدماغ عن النفس).إن ظهور الأفكار الرئيسية يعطي ظواهر الواقع معنى إشارياً لا يخصها موضوعيا .

- لوظائف قسم الدماغ المنظم لتيار المعلومات المتدفق من الذاكرة والمعروف بال (Hyppokamp) أهمية استثنائية . وهناك من المبررات مايجعلنا نفترض مشاركته المباشرة في نشوء « التغيرات النفسية الفجائية » أي نشوء تركيبات غير متوقعة لكنها غير اعتباطية من آثار الانطباعات المحفوظة في الذاكرة . ففي حالة النوم تشارك هذه الآلية في تشكل الأحلام ، وفي حالة اليقظة في عملية الإبداع حين تكون في مرحلة التخمينات والفرضيات والافتراضات الحدسية .

إن لا وعي اللحظات الحرجة للنشاط الابداعي للدماغ (« الوعي الأعلى لها ») يؤمن لهذا النشاط التحرر الضروري من تدخل الوعي السابق لأوانه

ومن ضغط المعرفة السابقة . لكن هذه الحرية تنقلب ديالكتيكياً الى لا حرية تجاه الحقيقة ، تجاه الواقع الموضوعي الذي يقارن « إعلام » الفنان به .

وكما ان الفرضية لاتصبح معرفة تعكس الواقع الفعلي بموضوعية إلا بعد اختبارها بالممارسة ، كذلك صحة الهدف الفني الأعلى ومداه لايختبران الا بالممارسة الاجتماعية في ادراكها للأعمال الفنية فإما ان تدخل هذه الاعمال أو بعضها في كنوز الثقافة الفنية وتستمر حية على امتداد العصور وإما أن ترفض وتدخل زوايا النسيان .

ولكن هل تقتصر وظائف الوعي الأعلى بوصفه نوعاً خاصاً من أنواع نشاط الدماغ على مشاركته في عمليات الإبداع الفني والعلمي ، أم أن لآلية الوعي الأعلى أهمية أشمل بالنسبة للنفسيةالانسانية ككل ولسلوك الانسان في الوسط الاجتماعي المحيط به ؟ هذا ماسنحاول الاجابة عنه فيما يلي :

الوعي الأعلى والأوامر الأخلاقية

الوعي الباطن - الوعي - الوعي الأعلى . . ألا يذكرنا هذا الثالوث بمصادرة سيغموند فرويد القائلة بثالوثية تركيب الشخصية الانسانية هي الأخرى : الهو - الأنا - والأنا العليا ؟لسنا ممن يميلون الى التقليل من فضل فرويد لا في اكتشافه الدور الخطير للعمليات النفسية اللاواعية ولا في الصيغة التي اعطاها للتناقض الداخلي في تفاعل « الأنا » الواعية بالنوعين الآخرين من اللاوعي . إلا أن فهمنا للوعي الباطن وللوعي الأعلى يقوم على سُنن موضوعية في النفسية الانسانية مختلفة تماما عن تلك التي يراها فرويد .

فهو يرى أن الاختلال في نشاط الانسان النفسي ناجم في العديد من الحالات عن النزاع بين دائرة الميول البيولوجية (الهو) ومطالب المجتمع

المتمثلة في نفس الفرد بالأنا العليا . فالأنا العليا (ومشتقاتها كالضمير ، والشعور بالذنب الخ) في الشخصية السوية هي مبدأ قمع وأداة إخضاع الفرد للمجتمع ومحرماته ومعاييره وميوله . وهذا هو السبب في أن ضغط الأنا العليا على الأنا العقلانية خطر ودخيل لا أقل من ضغط دوافع الهوالغامضة .

أما البداية الابداعية في نشاط الدماغ النفسي فلا تنشأ الا كوسيلة مصالحة بين القوى المتصارعة للهو والأنا العليا اللذين تسعى الأنا الواعية لايجاد حل وسط بينهما .

أما لماذا لم تبق الميول البيولوجية العميقة وحدها ، بل الضوابط الاجتماعية أيضاً ، خارج دائرة الوعي ، مع ان أي مجتمع يصوغ مطالبه من الذات بشكل واضح تماماً ، فمسألة يتركها فرويد مفتوحة .

لقد كان للحاجات الاجتماعية التي نمت « من الغريزة الاجتماعية » للحيوانات أجدادنا (« كانت الغريزة الاجتماعية أحد أهم العوامل في تطور الانسان من القردة ف . انغلز)[٣٨] دور حاسم في بنية الشخصية الانسانية . لكن هذا الخضوع لمعايير المحيط الاجتماعي كان يمكن ان يؤدي (وقد أدى بالفعل - لنذكر حيوية « الرواسب » القديمة !) الى تصلب المعايير العابرة تاريخياً تصلباً بالغاً ، والى خطر نشوء ذاتي بالامسؤ ولية التامة لقناعة الانسان بأن من يتحمل تبعة تصرفاته ليس هو ، بل الذين ربوه والوسط الذي كونه .

وقد تبر ز أحياناً بين الاجتماعي والمثالي بوصفهما موجوداً وواجباً تناقضات لاتقل في عمقها وديناميكيتها عن الصدام الفرويدوي بين البيولوجي والاجتماعي بل تزيد عليه . وقد جسد دوستويفكسي جوهر النزاع الأول بعبقرية في الحوار المشهور بين ايفان كارامازوف وأخيه أليوشا .

---

٣٨ - ماركس وانغلز: المؤلفات، ج ٣٤ . ص ١٣٨

يسأل ايفان كارامازوف أخاه أليوشا بعد أن روى له قصة الطفل الذي اطلق عليه الجنرال الكلاب تمزقه عما يجب ان يكون مصير الجنرال القاتل في رأيه .

« رفع أليوشا نظره الى أخيه وقد لوى وجهه في ابتسامة شاحبة وهمس :

- القتل !

- برافو ! - صرخ ايفان في حماسة ، - إذا كنت تقول هذا ، إذن . . آه ، يا للراهب الزاهد ! أي شيطان صغير يقبع في قلبك ، ياأليوشا كارامازوف !

- ماقلته سخف - غير معقول لكن . .

وصرخ ايفان :

- القضية كلها في «لكن » هذه . . اعلم ايها المبتدىء* ان السخافات ضرورية جداً على هذه الأرض . العالم كله قائم على هذه السخافات . ولولاها لربما لم يحدث شيء على هذه الأرض . . »[٣٩]

ليس بالصعب علينا أن نرى معايير الأخلاق المسيحية التي تمثلها أليوشا هذا التمثل العميق والعضوي فيما يبدو فشكلت فيه قناعة صادقة كان يجب ان تملي عليه جواباً مغايراً يكون بروح الصفح وعدم مقاومة الشر . لكن اليوشا وجد نفسه مع هذا ينطق فجأة بهذه الكلمة « القتل » بهذه السخافة التي « يقوم العالم عليها » . لكننا ندرك مسبقا ان مطلب « القتل » اللامعقول من وجهة نظر المعايير المسيحية العابرة تاريخياً يعكس نظام قيم يمكن أن يؤدي فقده الى تشويه جوهر الانسان ذاته بوصفه حامل الحضارة التي نشأت على هذه الارض .

★- وهو الراهب قبل إبرازه نذوره الرهبانية .

٣٩ - دوستويفسكي ف . م : المؤلفات الكاملة ، ج ١٤ . ص ٢٢١

إن الوعي الأعلى يمكن الانسان من التصرف تصرفاً « لامعقولاً » لكن هذه اللامعقولية ذاتها تنطوي على آلية إبداع معايير أخلاقية جديدة مازالت في طور ارتسامها ، في طور تخمينها في سياق ديناميكية التطور الاجتماعي وفي أزمة العلائق الاجتماعية القائمة . فادراك حقيقة ان العبد انسان هو الآخر لم يكن على الارجح أسهل على معاصري نظام الرق من تسليم احفادهم باكتشاف كوبرنيك او بنظرية داروين . ومثل هذه الاستبصارات الأخلاقية بحاجة الى حمايتها في نزعة المحافظة لدى الوعي لا اقل من حاجة فرضيات الاكتشاف العلمية الى هذه الحماية .

يقع الوعي الباطن في نظام الدوافع - الحاجات عند تقاطع الحاجات البيولوجية والاجتماعية . بينما يقع الوعي الأعلى في منطقة « تغطية » الحاجات الاجتماعية والمثالية . وننوه على الفور ان المقصود في الحالة الأولى ليس النزاع بين الدوافع غير المقبولة اجتماعياً والمعايير والمحرمات التي يفرضها المجتمع ، بل الصدام مع حاجة الفرد الى اتباع هذه المعايير والتكيف معها . ان الوعي الباطن والوعي الأعلى هما وليدا الحاجات وناتجاً تفاعلها المعقد والمتناقض . ان تعاليم فرويد قائمة كلها على الصدام بين الهو البيولوجي والأنا العليا الاجتماعية مما جعله يقصر موضوع تحليله كله على دائرة الوعي الباطن . ان مقولة الوعي الأعلى لا وجود لها في نظام فرويد ، كما لاوجود في نظامه للحاجات المثالية كمجموعة مستقلة . وبما أن دائرة الوعي الأعلى موجودة وتتجلى بوضوح كاف في دائرة الابداع الفني على سبيل المثال ، لم يبق أمام فرويد سوى مخرج واحد هو العودة الى النزاع بين البيولوجي والاجتماعي وبتصعيد الميول الجنسية المكبوتة وغيرهما من الأساطير المماثلة التي تأخذ بها الفرويدوية الأورثوذكسية . ونعتقد من جهتنا ان أساس تقسيم دائرة العمليات النفسية اللاواعية الى وعي باطن ووعي أعلى هو

التفاعل المتناقض داخليا بين النزعتين الاساسيتين في وجود الطبيعة الحية ، وهما نزعتان في غاية الضرورة وفي غاية التناقض في آن - أعني بهما نزعتا البقاء والتطور .

إن آلية الوعي الأعلى القائمة على أساس الحتمية الموضوعية لتصرفاتنا المرتبطة بما اختص به كل منا من معطيات وراثية وشروط تربية ، هي التي تولد فينا الشعور الذاتي الذي لايحتاج الى دليل بمسؤ وليتنا الشخصية عن أعمالنا أي الحاجة الى مساءلة أنفسنا المرة تلو المرة : « هل أنا محق في تصرفي على هذا الشكل ؟ » .

« عندما كان ليفين يسأل نفسه عمن يكون ولماذا يعيش لم يكن يجد جواباً فيتسلل اليأس الى قلبه ، لكنه عندما كان يكف عن طرح هذه الاسئلة على نفسه ، كان يبدو له أنه يعرف من يكون ولماذا يعيش ، لانه كان يعمل ويعيش بشكل ثابت ومحدد ؛ بل إنه صار في الفترة الأخيرة يعيش بشكل ثابت ومحدد اكثر من السابق . .

كانت أفكاره تزرع الشك في قلبه وتشوش عليه رؤ ية ماهو واجب عليه وما هو غير واجب أما عندما لم يكن يفكر ، بل كان يعيش ، كان يشعر على الدوام في نفسه بوجود حاكم لايخطىء يقول له أي التصرفين أفضل وأيهما أسوأ ؛ وعندما لم يكن يتصرف التصرف الواجب ، كان يشعر على الفور بذلك »[٤٠]

غني عن البيان أن هذا « الحكم الذي لايخطىء » لم يولد مع ليفين ، بل خلقته حياة البطل السابقة كلها بدءاً من طفولته الباكرة . لكن دماغ الانسان لايحلل لدى اختياره تصرفاً ما كل البدائل ولايستحضر كل البراهين التي

٤٠ - تولستوي ل . ف : المؤلفات الكاملة ، ج ١٩ ، ص ٣٧١ - ٣٧٣

ترجح حلاً أو آخر ، ولا كل المواقف السابقة التي مر بها هو أو معارفه ؛ إنه ، عادة ، غير قادر على تقدير كل العواقب المحتملة لهذا التصرف أو ذاك ، ذلك ان تحليلاً عقلياً كهذا يحتاج ، بكل بساطة ، الى وقت قد لا يتوفر له . هنا تتدخل الحاجة المهيمنة باستمرار في شخصيته لتملي عليه قرارها الذي يقبله الشخص ويراه على أنه « أمر الضمير » أو « نداء القلب » أو « القاضي الداخلي » .

وعلى مايبدو فإن لنشاط الوعي الأعلى ومايقترن بهذا النشاط من انفعالات دوراً هاماً في تحول الحاجات الموضوعية لتطور المجتمع الى أهداف شخصية للفرد والى دوافع سلوكية له . والتصور القائل بتحول حاجات المجتمع تحولاً مباشراً الى دوافع سلوكية فردية لأعضائه عن طريق الوعي المنطقي لهذه الحاجات تصور نشك في مطابقته للواقع . « فالمحدودات النابعة من الوجود الموضوعي ، كما أشار الى ذلك بحق الفيلسوف لماركسي الهنغاري ل . غارابي ، لاتعبر عن نفسها مباشرة عن طريق الوعي الفردي (أو الذاتي) بل عن طريق ظواهر مستقلة عنه (أي عن الوعي) وأساسية بالنسبة الى علم النفس كالحاجات والمصالح وغيرها » ٤١ . ان الماركسية وهي تؤكد باستمرار على المشروطية الطبقية للمعايير الاخلاقية ، لاتقبل بالنسبية الاخلاقية ، فالطبقي (فيما لو كان المقصود الطبقات التي تمثل الاتجاهات التقدمية للتطور التاريخي) لايتناقض والانساني الكلي بل يتطابق معه . ومما له دلالته ان القوى التقدمية في زمنها كانت تدعو على الدوام الى المثل العليا في المساواة والاخاء وكرامة الفرد كفرد وقيمته الانسانية . وعلى العكس كان الرجعيون على اختلاف اشكالهم وألوانهم يدعون بعناد في سبيل تحقيق

٤١ - غارابي ل : المادية التاريخية ومسألة الشخصية ، قضايا الأدب ١٩٦٨ ، عدد ٩ . ص ٢٤٠

مصالحهم الطبقية الى اللجوء إلى الوعي الباطن (الى دائرة الغرائز البدائية ونزعة البقاء والخوف والعجز) أو إلى العقلانية الأنانية والتحسب والى استنتاجات من نوع « وماذا بيدي أن أفعل ؟ » . وكبديل « للفردية الحيوانية » لم تكن ترفع في هذه الحالات عادة شعارات تنادي بكرامة الشخصية الانسانية وقيمتها القائمة بذاتها ، بل شعارات تدعو الى عبادة « الجمهور » التي يفترض فيها سيره الأعمى وراء « قائد أو زعيم » .

إن سوء تقدير خصوصية الوعي والوعي الباطن والوعي الأعلى يؤدي الى محاولات دؤوبة لكنها فاشلة ترمي الى التوضيح والافهام والاقناع عن طريق حث الفرد على التمسك « بالوعي » والاسترشاد به ، وهذا أمر لم يفلح فيه أي مصلح طوباوي حتى الآن ، وأدى ولا زال يؤدي في حياتنا اليومية الى إضعاف مفعول العمل التربوي إضعافاً بالغاً .

وقد كان تصور التعرف الشكلي على أصول الحياة الاجتماعية ومعاييرها وقوانينها من أجل تكوين شخصية قيمة اجتماعياً واضحاً حتى لسقراط الذي حاول أن يفهم لماذا يعرف الانسان الخير لكنه يفعل الشر . إن عظمة الضمير بوصفه المنظم الداخلي للسلوك النافع اجتماعياً تتحدد على وجه الضبط باستقلاله النسبي عن الثواب أو العقاب الاجتماعي الفوري . يقول بوشكين : « الاستهانة بحكم الناس ليس بالأمر الصعب ، أما الاستهانة بالحكم الداخلي فهو المستحيل » . ويقول ف . غ . كورولينكو « عندما أكون على يقين من أن أحداً لن يرى ولن يعرف وامتنع مع ذلك عن فعل ما - فهذا هو الضمير » وفي لاغرضية تصرفي الذاتية التي تعني شخصي وحده هذه (أي تصرفي وفق مايمليه عليّ ضميري) مكمن تجاوز التعارض بين الحتمية وحرية الاختيار ، يقول لينين : « ان فكرة الحتمية ، اذ تقرر ضرورة التصرفات

الانسانية وترفض خرافة حرية الارادة ، لاتنتقص إطلاقاً من عقل الانسان ولا من ضميره ولا من قدرته على تقويم أعماله »[٤٢]

إن نفسية الانسان نتاج التاريخ الانساني ونتاج وجوده الاجتماعي . فهي محكومة مرتين بنظام العلاقات الاجتماعية لان الانسان ينمو في وسط اجتماعي معين ، ولأنه يرث تجربة الأجيال السابقة . لكن وارث هذه التأثيرات الاجتماعية وحاملها هو عضو مادي من أعضاء جسمنا - الدماغ الذي يعمل بقوانينه الخاصة القابلة لأن تعرف لا أقل مما تعرف قوانين الطبيعة الأخرى .

وبقدر ماتتعمق معرفتنا لقوانين سلوكنا الخاص وتكتمل ، تزداد وسائل تكوين الشخصية ودفعها الى الكمال ، وطرائق التعليم والتربية، واعادة التربية فعالية . ان النجاحات في علم الانسان،كأي انجازات أخرى يحرزها العلم ، يمكن أن تستخدم لأغراض تقدمية ولأغراض رجعية : إما لتطوير شخصية غنية وحياة ذات فعالية إبداعية تطويراً منسجماً ومتناغماً وإما لإنتاج أناس آليين بالجملة .

فلنكن متفائلين ولنكتف بالاحتمال الأول . ولكن ألا ينطوي حتى هذا الاحتمال على تهديد لتطور الحضارة اللاحق ؟ وماذا لو أخذ علماء النفس في المستقبل ، مدفوعين بأفضل النوايا وأكرمها ، يكونون أناساً مثاليين وفق تصوراتهم المحدودة تاريخياً عن هذا المثل الاعلى ، ثم يتبين ان هذا المثل الأعلى ليس بالكمال الذي ظُنَّ فيه وأنه لم يُحسب في نموذج الانسان المنسجم حساب لكل شيء ، ومن ثم يظهر على وجه الأرض أناس مثاليون لايقوون على الصمود أمام اختبارات المستقبل ؟ . .

---

٤٢ - لينين : المؤلفات الكاملة ج ١ ، ص ١٥٩

نقـول مبـاشـرة أن الانسانية لايتهددها إن مثل هذا الخطر . لأن الطبيعة تحرمـه كما تحرم اخـتراع المحـرك الدائم أو تحديد سرعة الالكترون ووضعه في مداره في نفس الـوقت . هذا الحـرم هو وجـود الوعي الأعلى ، هو الاستحالة المبـدئيـة لا مكـانيـة التـدخل الاعتباطي في آليات نشاط الدماغ الابداعي . يمكنـك أن تحرم الانسـان من حيـاتـه أو من عقله ، لكنـك لاتستطيـع برمجة تفكـيره وسلوكـه برمجـة تامـة . وبهـذا المعنى المـادي فنفسية الانسان وإرادته تملكان حرية لاتزول إلا بزوال الحياة نفسها .